﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 19 - 22]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذكر أحـوال النّـاس إلى ذكر جزائهم

بعدَ أنْ ذكر اللّه تعالى فيما سبقَ أربابَ الفرقِ الستِّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الآية، وذكر فيها أنَّ اللّه سبحانه يفصلُ بينهم يوم القيامة بعدله، وهو العليمُ بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم، وبيَّن أنَّ ذلك الفصلَ بينَ المهديِّ وغيره مختصٌّ به لكمالِ علْمه بمَن يسجدُ له ومَن لا يسجدُ له، ناسبَ أنْ يُتبعَه بذكر جزائهم بما يُرغِّب المؤالف ويدفعُه نحو المزيدِ من الطّاعة، ويُرهِّب المخالفَ ويزيدُه ندمًا على ما فرطَ منه، وخوفًا ممّا يَنتظره من أليمِ العقاب وجليلِ العذاب، كما عبّرت عنه هذه الآيات، الّتي بدأتْ بذكر جزاءِ أهل الجحود والنُّكران والاعتراض، فقالت: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾، لتستكملَ الآياتُ منهجَ الهداية بالتَّرهيب والتَّرغيب، بالإجمال والتَّفصيل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَصۡمَانِ﴾ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾: معنى (خصم) نازَع، والخَصْمُ مصدرُ خَصَمْتُهُ، أي: نازعتُه خَصْمًا، يقال: خاصمْتُهُ وخَصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: 204][1]

(1) الراغب، المفردات: (خصم).

والخِصامُ: مَصْدَرُ خاصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيهِ سَواءٌ، وكذا الواحدُ والجمعُ فيه سواء، فيقال لكلِّ واحدٍ منها - الذَّكر والأنثى والواحد والجمع: خَصْم، وقَدْ يُجْمَعُ الجَمْعُ عَلَى خُصوم[1]، والمراد هنا الجمعُ وليس المفرد، فقوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ يريد طائفتين، فلفظة (خَصْم) مصدرٌ يوصفُ به الجمعُ والواحد، ويدل على أنّه أراد الجمعَ تعبيره بواو الجماعة في: ﴿ٱخْتَصَمُواْ﴾[2].

2) ﴿قُطِّعَتْ﴾: أصل (قطع) يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ، يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارَما، ويُستعملُ القَطْعُ في فصلِ الشّيءِ مُدركًا بالبصر كالأجسام، نحوُ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، أوْ مدركًا بالبصيرة كالأشياءِ المعقولة، ومنه قَطْعُ الوصلِ: وهو الهِجرانُ، وقَطْعُ الرَّحِمِ فإنّه يكون بالهِجرانِ ومنعِ البرّ، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: 22]، وقال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27][3]، ومعنى ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾: جُعِلتْ لهم بتقدير، كما يُفصَّل الثوبُ[4].

3) ﴿يُصَبُّ﴾: أصلُ (الصَّبّ) إراقَةُ الشَّيْءِ، وإلَيْهِ تَرْجِعُ فُروعُ البابِ كُلِّهِ، ومِنْ ذَلِكَ: صَبَبْتُ الماءَ أَصُبُّهُ صَبًّا، ويُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فَيُقالُ لِما انْحَدَرَ مِنَ الأَرْضِ: صَبَبٌ، وجَمْعُهُ أَصْبابٌ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُنْصَبٌّ في انْحِدارِهِ[5]، وفي مسند أحمد في وصفه ﷺ: "إذا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّما يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ"[6]، وصَبُّ الماء: إراقتُه من أعلى، يقال: صَبَّهُ فانْصَبَّ، وصَبَبْتُهُ فَتَصَبَّبَ، قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس: 25][7]، وانْصَبَّ النّاسُ عَلَى الماءِ اجْتَمَعوا عَلَيْهِ، والصُّبَّةُ بِالضَّمِّ والصُّبابَةُ بَقيةُ الماءِ في الإناءِ[8]، ومن استعماله في غير الحسِّ قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر: 13]، وقوله تعالى هنا:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(3) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبّ).
(6) أخرجه أحمد في المسند: 2/ 144، الحديث رقم: (746).
(7) الراغب، المفردات: (صبّ).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (صبب).

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ قيل معناه: يُصَبُّ الحَميمُ - وهو الماء المغليُّ - فوقَ رؤوسِهم[1].

4) ﴿يُصْهَرُ﴾: الفعل (صَهَر) له أصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى قُرْبَى، والآخَرُ عَلَى إذابَةِ شَيْءٍ، ومنه يُقالُ: صَهَرْتُ الشَّحْمَةَ، والصُّهارَةُ: ما ذابَ مِنْها، ويُقالُ: صَهَرَتْهُ الشَّمْسُ، كَأنَّها أذابَتْهُ[2]، ومعنى ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: يؤثِّر من فَرْط حرارته في باطنهم، تأثيرَه في ظاهرهم، فتذابُ به أحشاؤهم، كما تذابُ به جلودُهم[3].

5) ﴿مَّقَـٰمِعُ﴾: الفعل (قمع) له أُصولٌ ثَلاثَةٌ صَحيحَةٌ، والمعنيُّ هنا إذْلالٌ وقَهْرٌ، يقال: قَمَعْتُهُ، أي: أذْلَلْتُهُ، ومِنْهُ قَمَعْتُهُ، إذا ضَرَبْتُهُ بِالمِقْمَعِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ و﴿مَّقَـٰمِعُ﴾ جمعُ مِقْمَعٍ، وهو ما يُضرَبُ به ويُذلَّل، ولذلك يقال: قَمَعْتُهُ فانْقَمَعَ، أي: كففته فكفّ[4]، وقيل في معنى ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: هي سياطٌ منَ الحديد يُجلَدونَ بها، وهي جمع مِقْمَعَة، وحقيقتُها: ما يُقمَعُ به، أي: يُكَفَّ بعنفٍ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـــانُ حـال فريقي النّاس تـفـصـيـلًا بعد تعدادِ أسمائهم إجمالًا

تُبين الآيات أنَّ النّاس فريقانِ تنازعوا في أمر ربِّهم، وما يليقُ به، وما لا يليق؛ فآمن به فريقٌ خضعوا وانقادوا وسجدوا له، وكفرَ فريقٌ وجحدَ ولم يخضعْ ولم يسجُدْ، فالذين كفروا أعدَّ اللّه لهم يومَ القيامة نارًا تُحيط بهم من كلِّ جانب، كما يحيط الثوبُ بالجسد، ولزيادةِ تعذيبهم تصُبُّ الملائكةُ على رؤوسهم الماءَ الشَّديدَ الحرارة، فينفذُ إلى ما في بطونهم فيُذيبها كما يذيبُ جلودَهم، وليس هذا فقط

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صهر).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قمع).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.

فقد أُعِدَّت لهم أعمدةٌ من حديدٍ كالسّياط؛ تضربُهم بها الملائكةُ لتردَّهم إلى النّار كلما حاولوا الخروجَ منها من شدَّة الغمِّ والكرْب، فتَسلِقُهم بعد ذلك بألْسِنةٍ حِداد، وتقولُ لهم متهكِّمةً بهم مُقرِّعة لهم: ذوقوا عذابَ النّار المُحرقةِ جزاءَ كُفركم بأيديكم وجحودكم بخالقكم وموجدكم، فلم يكن تعذيبُكم ظُلمًا عليكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

قوله تعالى: ﴿*هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ واقعٌ موقعَ الجواب عن سؤالٍ مقدَّر، أثارَه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ عن تفصيل صفة العذابِ الّذي حقَّ على كثيرٍ من الناس، الَّذين لم يسجدوا للّه تعالى، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك، فهي استئناف بيانيٌّ يسمى شبه كمال الاتصال[2]، والذي نميلُ إليه أنَّ هذه الآية وما يليها تفصيلٌ لحالِ كثيرٍ من الَّذين يسجدونَ، ولا يسجدون، الَّذي أشارت إليه الآية السابقة: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، فبينت الآيات ذلك من خلال خصمين اختصما في الاعتقاد باللّه وربوبيته وجحد ذلك، فبيَّن حالهما بهذا التمثيل البديع بالخصمين، فيكون تركُ الوصل لأنّها سيقت للبيان، والجوابِ عن حال الفريقين أيضًا.

ما أُجمل في سباقٍ فُصِّل في لحاق

بلاغة استعمال اسم الإشارة:

الإشارة باسم الإشارة المُثَنَّى ﴿*هَٰذَانِ﴾ إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهد بالعين[3]، وكأنَّ الفريقينِ المقصودينِ حاضرانِ ماثلانِ أمامَ المخاطب، بالقدر الَّذي سوَّغ الإشارة إليهما

تصوير المشهد تهويلٌ وتشويق

(1) جماعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490، 491، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 101، 102.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 228.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 228.

باسم الإشارة الدالِّ على القرب؛ لما فيه من تهويل المشهد، وترهيبِ المعرض، وتشويق المُقبِل.

تعيين المشار إليه:

المشارُ إليه في الآية هما فريقا السّاجدينَ والممتنعينَ عن السُّجود، وهما اللَّذان طالهما هذا الإخبار: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فهذان (الكثيران) هما المُشار إليهما باسم الإشارة ﴿*هَٰذَانِ﴾، حيثُ السّياق موصولٌ بهما، ولا دليلَ ظاهرًا يصرفُه عن ذلك، وما روي من أسباب النزول في ذلك ليس نصًّا في السّببيَّة، ولا ينهضُ للحكم بعدولِ الكلام عمّا اقتضاه السّياقُ من الاتصال.

المُشار إليهما هما فريقا الكفر والإيمان في كلّ زمانٍ ومكانٍ

والصَّحيحُ أنَّه لا تعارضَ بينَ ما ورد في أسباب النزول بشأنِ غزوة بدر، وبينَ ما جاء في السّياق، فالسّياق يؤكِّد على أنَّ الفريقين شاملانِ للكفّار والمؤمنين عمومًا، وما جاء في أسباب النزولِ عبارةٌ عن تمثيلٍ لهذين الفريقين، فهو قريب من التفسير بالمثال.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ دون مرادفاته:

أوثرَ التعبيرُ بلفظ (الخصم) دون غيره كالفريق أو الفوج أو الجماعة، لما يحملُه من معنى الخصومة، وهي وإنْ كانت مستفادةً ومعلومة من الفعل الماضي ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ غيرَ أنَّ الفعل الماضي لا يُعبِّر عن تمام معناها، الَّذي دلَّ عليه المصدر (الخصم)، وهو تمام الخصومة وكمالها؛ لأن المصدر يُطلق ويُراد به الحقيقة والماهية، فلا أبلغَ من المصدر ليدلَّ عليها، وتسميةُ الفريقين بالخصمينِ من إطلاق المصدر على الفاعل، فيكون فيه كمالُ المبالغة والتصويرُ الدقيق لشدَّة الخصومة بين الفريقين، حتى كأنَّهما نفسُ حقيقة المُخاصمة على حدّ قولنا: (زيد عدلٌ)، ففي الإسناد مبالغةٌ على أن ﴿*هَٰذَانِ﴾ مبتدأٌ و﴿خَصْمَانِ﴾ خبر له.

التعبير بالمصدر أدلُّ على تمام الخصومة

نكتةُ التعبير بالفعلية ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾:

الخصومة بين الفريقين واقعةٌ حتمًا في الزمان كلِّه ولذلك عبَّر عنها بالماضي

عبّر النَّظم الكريم بالجملة الفعليَّة ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ الَّتي جاءت بصيغةِ الماضي، وهي نعت لـ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ هذا الخصامَ والجدال قد وقعَ بالفعل، ونكتةُ التعبير بالماضي هو تحقُّقُ وقوع الخصومةِ قطعًا، فإنَّ أهل الحقِّ وأهل الباطل لا يلتقيان أبدًا، أوْ يحملُ على أنّ اعتقاد كلٍّ من الفريقين بحقيَّة ما هو عليه، وبطلانِ ما عليه صاحبُه، وبناءُ أقواله وأفعاله عليه خصومةٌ للفريق الآخر، وإنْ لم يجر بينهما التحاورُ والخصام[1]، وتفيدُ الجملةُ النعتيَّةُ ثبوتَ هذا الوصف واستمرارَه في الفريقين، وأنَّه واقعٌ في الماضي زمنًا، ومستمرٌ وثابتٌ في الحاضر والمستقبل.

بلاغةُ العدول إلى الجمعِ والمرجعُ مثنًّى:

الجمع محمولٌ على أفراد الفريقين لا على عين الفريقين

أسند النَّظم فعلَ الاختصام إلى جمع في قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ مع كون المتقدِّم مثنى ﴿خَصۡمَانِ﴾ وليس جمعًا، فلم يقل: (اختصما) حملًا عَلَى المَعْنَى، فإنَّ الخصم جنسٌ عامٌّ المَعْنَى، فهو يصدقُ على جمع، فـ ﴿خَصۡمَانِ﴾ معناه: فوجان أوْ فريقان سُمّيا بالمصدر للمبالغة، وكلُّ فوجٍ منهما أو فريقٍ يضمُّ تحته أفرادًا، ولذلك عُبِّر بالجمع حَمْلًا على مصاديقه وأفراده، "ولولا هذا التأويل لكان الأنسب أن يقال: اختصما، ولو عكسَ جاز، أي: لو ذكر مكان ﴿هَٰذَانِ﴾ (هَؤُلاء) ومكانَ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ (اختصما) جاز بأن يُحملَ الإفرادُ عَلَى اللَّفْظ، والجمع عَلَى المَعْنَى، مثل قوله عزَّ مِن قائل: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١﴾ [ص: 21]"[2]، والغايةُ من الجمع الإشارةُ إلى كثرة المتخاصمينَ في أمرِ الربِّ تعالى إثباتًا ونفيًا، ممّا يدل على أنَّها قضيّةٌ جوهريَّةٌ في حياة الإنسان،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101.

(2) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 35.

ينبغي الاهتمام بها، والعملُ على تفنيد آراء أهل الباطل، وتفكيكِ أسبابِ جحودهم وكفرانهم بالبرهانِ والمَوعظة الحسَنة.

فنُّ الجناس:

بين قوله تعالى: ﴿خَصۡمَانِ﴾ وقوله: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، يسهمُ في تصوير شدّةِ الخصومة وبلوغِها مبلغًا عاليًا؛ حتّى تصل أحيانًا إلى الاحتراب والاقتتال، وأنَّ هذه الخصومة ينبغي أن تكونَ من أهل الإيمان، المتسلِّحين بالبرهان والحكمة والمناظرة؛ لمواجهة أهل الضَّلال، المتسلِّحين بالشكِّ والحيرة والمغالطة.

تعميق المعنى وتصوير المشهد

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

استخدم الحرف ﴿فِي﴾ الدالّ على الظرفيَّة في قوله ﴿فِي رَبِّهِمۡ﴾، وهو هنا للظّرفيَّة المجازيّة، والغرضُ الإشعارُ باستغراق الخصام في دين الله وذاته وصفاته، وبلوغه درجةً عاليةً من العداوة، وأنَّها في حال يأسٍ أن يتحقَّق بينهما استقرارٌ، وتفيد الظرفيةُ المجازية كمالَ حالة الخصومة، حتى كأنَّهم دخلوا إلى مكانٍ واستقروا فيه، فلا يجتمعونَ على رأيٍ في مواقفهم منه تعالى، ومن دينه الحق وأوامره ونواهيه، فالقضيةُ الَّتي وقع فيها الجدالُ عميقةُ الخلاف، ذاتُ أغوار بعيدة، وهم دخلوا في خصومتهم في تلك الأغوار والأبعاد.

العـــداوة بين الفريقين في الله شديدةٌ

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، تقديرُه: اختصموا في ذاتِ ربِّهم أوْ صفاتِه[1] أوْ في دينِه ونحو ذلك، وهذا الحذفُ يُغني عنه تحديدُ الخصومة في الربّ، لأنّ هذا الخلاف يدلُّ على وجود الخصومة في كلِّ ما يتعلّقُ بالربِّ تعالى من ذاتٍ أو صفاتٍ أوْ شريعةٍ أو أمرٍ أو نهيٍ، ممّا يؤدي إلى ثراء المعنى وتنوُّعه، فيرسم صورةً للخلاف والمخاصمة في كلِّ ما يتعلّقُ بالقضيَّة

الحـذف يعطي عموم المعنى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 36.

الجوهريَّة والأساسيَّة في الحياة، من الارتباط بالله تعالى ارتباطًا حقًّا وصادقًا.

نكتةُ التعبير بلفظ الربوبيَّة:

الذي يظهر من التعبير بلفظ الربوبيَّة دونَ الاسم الجليل (الله) في قوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡ﴾، أنَّه قصد التَّعريض بالفريق الكافر بالله المُعرِض عن طاعته والسُّجود له، لكونه قد أعرضَ عن طاعة مَن أنعم عليه بكلِّ النِّعم، وأوَّلُها نعمة الخلق والإيجاد، ثمَّ نعمة الرزق والرعاية، ثمَّ ما لا يُحصى من النِّعَم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34].

التعريض بالكفار لإعراضِهم عن طاعة مَن أنعمَ عليهم بوافر النِّعَم

نكتة العدول عن الاسم الجليل إلى ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

عدلَ عن (اختصموا في الله) بالاسم الجليل إلى ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ لاختلافِ المتخاصمين فيهِ وجودًا وعدمًا، فيتبيَّنُ أنَّ الفريق الآخر ينكرُ ربوبيته أصلًا، ولذا رفض السُّجود والخضوع، فكيف يختصم في مدلول اسمه؟ ممّا يدلُّ على أنَّ الاختصام وقع في الربوبية أصلًا دون الألوهيَّة الحقة، أي: بين فريق الإيمان بالله وربوبيته، وفريق الكفر بربوبيته ووجوده أصلًا، وهم أهل الإلحاد.

العدول يحدد مركز الخصومة

براعةُ إضافة لفظ الربوبيَّة إلى الضَّمير:

أُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الجمع ﴿رَبِّهِمۡ﴾، مع أنَّ فيهم مَن لا يعبده ولا يعترفُ به ربًّا؛ لتنبيههم جميعًا إلى أنَّه ربُّهم جميعًا، اعترفوا به أو لم يعترفوا؛ وفيه اجتماعُ غرضين اثنين مختلفين؛ لأنَّ الإضافة بالنسبة للمؤمنين تشريفٌ لهم، وبالنسبة لغيرهم تعريضٌ بهم، وتعنيفٌ لهم، كما تحملُ إضافةُ الربِّ لمُنكريه بيانًا للواقع وما في نفس الأمر، وتوجيهًا لانتباههم إلى أنَّ إنكارَ وجودِ ربٍّ للعالم ينطوي على جهالةٍ مخالفة لأبسط قوانين السببيّة.

الإضافةُ للمؤمنين تشريف وللكافرين تعنيف

نوع الفاء ودلالتها:

التفريع تفصيل لما أُجمل ذكره سابقًا

الفاء في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ للتفريع، فقد رتّبت ما بعدَها على ما قبلها، ففصَّلت مع مدخولها ما أُجمل قبلها من أمر الخصمين الَّذين ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، من حيث بيانُ جزاءِ كلِّ فريقٍ منهما، أو لتفصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[1]، ولا فرق من حيث المضمون، فالذين يفصِلُ الله بينهم يوم القيامة، هما الفريقان اللَّذان اختصموا في ربهم؛ فريقُ الإيمان وفريق الكُفران.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول دون الاسم الظّاهر:

زرع قيمة الهدايةِ بإطماع الكافرين في القرآن

عبّر النَّظم عن أهل الكفر والتمرُّد على طاعة ربّهم بالاسم الموصول ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر (الكافرون)؛ للتنصيص على ترتُّب هذا العذاب على مضمونِ الصلة، وهو الكفرُ الَّذي دلَّت عليه الجملةُ؛ إذ الاسم الموصول يدلُّ على العموم ويفيد ما يفيدُه الشرط، نحو: (الذي يأتيني فله درهم) فتكون علّة استحقاقِ الدرهم هي الإتيانَ، وهنا تكون علّةُ استحقاق العذاب الكفرَ والتلبُّسَ به، ولأجلِ إطماعِ المخاطَبين من أهل الكفر المعاصرينَ لنزول القرآن وما بعده في أنْ يتحوّلَ عنهم وصف الكفر، فيصبحوا مؤمنين يومًا، ولو عبَّر بالاسم لما كان فيه هذا الإطماع، فاسم الفاعل بمعنى الصفة المشبهة يدلُّ على الثبات كألفاظ (المؤمن والكافر والفاسق).

نكتةُ الإتيان بعنوان الكفر لا الشّرك:

لفظ الكفر يعمُّ جميع الأصناف ولو أتى بالشرك لظُنَّ الاقتصارُ عليه

عبّرتِ الآية بنعتِ الكفر دون الشرك، رغمَ تقدُّم ذكر الشِّرك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، وسبب ذلك أنَّ وصف الكفر يعمُّ أهل الشرك وغيرهم من الفِرَقِ المذكورة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101.

ممَّن ليسوا بمؤمنين بربٍّ أصلًا، فكلهم فريق واحد والمؤمنون فريق آخر، كما أن الاختصام في الربّ أصلًا، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾، وليس في الوحدانيَّة، فناسبَ اختيار لفظ الكفر على لفظ الشرك.

غرضُ مجيءِ الخبر ﴿قُطِّعَتْ﴾ ماضيًا:

تقطيعُ ثيابِ النّار في حكمِ الواقعِ الحتميّ

عبّرتِ الآيةُ بصيغةِ الماضي ﴿قُطِّعَتْ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ ما توعّدهم الله به من تقطيع هذه الثياب لهم وإلباسهم إيّاها، المعبَّر عنها بقوله سبحانه: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، فهو تنبيهٌ على أنَّ إعداد هذا اللَّونِ من العذاب وغيره أيضًا قد وقع بالفعل وما يتأخّر عنها إلا زمنُ لبسهم لها في عرَصات الجحيم، وهي موعظةٌ بليغةٌ وردعٌ كبيرٌ لمَن يأبى الخضوعَ والانقياد لربِّ العالمين؛ ليراجع قراره المصيريَّ ويعلنَ توبتَه وأوبتَه لخالقِه وسيِّده.

سرُّ التعبير بالتقطيع دون التفصيل:

التقطيع أدقُّ في التصوير من التفصيل لإفادة معنى إحكام الثياب على الأبدان

التعبير بـ(التقطيع) أبلغُ من التعبير بـ(التفصيل)؛ لدلالته على أنَّ ثيابهم من النار قد قطِّعت على مقدارِهم دونما زيادةٍ أوْ نقصان، فالتَّقطيع: مبالغةُ القطع، وهو فصل بعضِ أجزاء شيء عن بقيّته، والمراد: قطعُ شقّة الثوب، وذلك أنَّ الَّذي يريد اتخاذ قميص أو نحوه يقطَعُ من شقَّة الثوب ما يكفي، كما يريده[1].

وأما التفصيل فيُطلق على حياكة الثوب، وقد يكون الثوب المفصَّل فضفاضًا لا محكمًا، فلا يدلُّ على المقصود وهو شدّةُ إحكام الثياب عليهم، ولذا فالتعبير بالتقطيع هنا أبلغ من التعبير بالتفصيل؛ لدلالته على أنَّ ثيابهم من النار قد ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: قُدّرت لهم على مقادير جثثهم[2]، كما أنَّ التقطيع يدلُّ على عدم الاهتمام بالمصنوع،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.

فكأنهم يلبسون قِطَعًا من ثياب نارية غير معتنى بها، بخلاف التفصيل الَّذي يدلُّ على اهتمام بصُنع الثوب وترتيبه وأناقته.

نكتةُ بناء الفعل المضعّف ﴿قُطِّعَتْ﴾ للمفعول:

زيـادةُ ترهيب الكافرين بعدم ذكـر الـفـاعـل والإيـجـاز في النَّظم

بُنِي الفعل الماضي ﴿قُطِّعَتْ﴾ للمفعول، فضلًا عمّا فيه من دلالةٍ على تحقق الوقوع وسبق الإعداد كما مضى، وأيضًا ما في تضعيفه من دلالة على المبالغة والتهويل في معنى التقطيع، والكثرةِ الَّتي ينبئُ عنها الفعل، وإشارةٍ "إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعلُ لهم ثياب من نار"[1]، فإنَّ في التعبير بهذا البناء اختصارًا لا يخفى، حيث لا حاجة تدعو إلى ذكر الفاعل، لكونه معلومًا، وهو مَن يأمره اللّه سبحانه وتعالى به، ولزيادة التَّهويل والترهيب؛ فإنَّ الجهل بمَن يقطّع لهم الثياب يزيدُ الأمر ترهيبًا؛ فإنَّ الإنسان يخشى ما يجهلُهُ ويُعاديه.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

العـذابُ الأشـدُّ لمنكري الربوبيّة

قُدِّم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على نائب الفاعل ﴿ثِيَابٌ﴾؛ للدلالةِ على الاختصاص، فهذه الثياب مقطَّعةٌ لهم وحدَهم لا لغيرهم، ولأجلهم لا لأحدٍ سواهم، مع ما في التَّقديم من التَّهكُّم بهم، كما يُقال للسجين: أعددتُ لك سياطًا، وتنبئُ (اللام) على أنهم المقصودونَ بالتقطيع، فصاروا غرض الفعل ونتيجته، وليسوا وسيلةً لتحقيق هدف آخر، وفي عودِ الضّمير على الموصول بصلته ما يدلُّ على أنهم اختصّوا بهذا العذاب لعلة الكفر؛ لأنّ الضمير يرجعُ لما قبله بصفاته وهيئاته الَّتي اتَّصفَ بها.

فصاحةُ اختيار مفردةِ الثياب لا الملابس:

ثياب النّار ثوابُ الأعمال الباطلة والأفـعـال الفاسدة

جاءَ تعبير الآية بالثياب دون الملابس، لما في التعبير بها من الإشارة إلى كونها جزاءً على أعمالهم الَّتي قدّموها، فأبَوا من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.

خلالها السّجود والانقياد لله تعالى، فالجزاءُ يسمَّى ثوابًا تصوُّرًا أنَّه هو هو، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاءَ نفس العمل في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: 7]، ولم يقل (جزاءه)، والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير[1]، كما أنَّ في مفردة (الملابس) ما يوحي بالإكرام، لأنها تلبس للحماية والزينة، بخلاف (الثياب) فإنها تطلق على ما يستر ولو بعض البدن، وتعبير ﴿قُطِّعَتْ﴾ الدالّ على الإهانة والاستخفاف يلائمُه التعبير بالثياب دون الملابس؛ إذ الملابس لا تقطع، بل الثوب يقطع ويتخذ منه قميصًا مثلًا.

نكتةُ جمع ﴿ثِيَابٌ﴾ لا (أثواب):

جمع الكثرة دليلٌ تراكم العذاب المحيط بهم

من اللّافت للنَّظر في صيغة جمع (الثياب) إيثارُ جمع الكثرة ﴿ثِيَابٌ﴾ على جمع القلة (أثواب)؛ ونكتة ذلك الدلالةُ على إحاطة العذاب بهم وتراكمِه عليهم، فهو طبقات بعضها فوق بعض[2]، وكلها محكمةٌ قد قطِّعت بإحكام شديد، وإذا كانت طبقةٌ واحدة من النار كافيةً في شدَّة الإيلام، فكيف إذا كانت طبقات؟

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

تحتملُ (مِن) الابتداءَ أو البيان

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ للابتداء، والمعنى ﴿ثِيَابٌ﴾ مبتدأة ومنشأة ﴿مِّن نَّارٍ﴾، أوْ أنَّها للبيان، بأن تكون قد أزالت الإبهام الَّذي قد يُفهم من لفظ ﴿ثِيَابٌ﴾ قبل أن يتمَّ بيان أنَّه ﴿مِّن نَّارٍ﴾، أي: أنَّه مُعدٌّ أيضًا لعذابهم لا لوقايتهم.

وجه ذكر النّار دون جهنم:

تقطيع الثّياب من النّار المحيطة بالأجساد لا من جهنم الَّتي هي اسم علم

سببُ إيثار التعبير بالنار دون (جهنم) في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ لعدم تصوّر تقطيع الثياب من جهنم الَّتي هي

(1) الراغب، المفردات: (ثوب).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.

عَلَمٌ على النّار، فإنَّ الثيابَ مقطَّعة من النار، فهي ثيابٌ نيرانيَّةٌ تلتصقُ بأجسادهم، وتسترُها من شدَّة ثخانتها، بالإضافة إلى ما ذكر من أوصاف النار، وصور التعذيب بها الَّتي حملتها الأخبارُ الَّتي اكتنفت ذكرها، وهي تقطيع الثياب منها، وصبُّ الماء الحار المغليِّ فوقَ رؤوسهم، ليصهرَ أبدانهم ظاهرها وباطنها، ثمّ أسواط الحديد الَّتي يضربون بها إذا ما حاولوا الخروجَ من النار، فكلُّ هذه الأوصاف مغنيةٌ عن التجهُّم الَّذي يفيده اسم (جهنم)، فهو أشدُّ وأقسى من مجرد إفادة معنى التجهُّم، هذا فضلًا عما يفيده لفظ (النار) من الإحراق والإيلام، كما أنّ النارَ مُحيطةٌ بهم بخلاف (جهنم) فإنها عبارةٌ عن اسم علَم للمكان، فلا يفيد الإحاطة بالمعذَّبين إحاطةَ النار بهم.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَّارٍ﴾:

تنكيرُ كلمة ﴿نَّارٍ﴾؛ لتفخيم شأنها وتهويل أمرها، فهي نار عظيمةٌ مُحرقةٌ مُؤلمةٌ، لا يعلمُ المتوعَّدون بها قدرَها.

بلاغةُ المجاز وتوجيهاتُه:

الاستعارة التَّمثيليَّة التَّهكميَّة أو المجاز المرسل يرسمانِ صورةً مخيفةً للعذاب

في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ احتمالان مَجازيّان؛ **الأول:** احتمال الاستعارة التمثيلية، حيثُ شبَّه إعدادَ النار المحيطةِ بهم بتقطيع ثياب وإعدادها لهم على قدر جثثهم، وهي استعارة تمثيلية تهكُّميَّة؛ إذ ليس هناك تقطيعٌ ولا ثياب على الحقيقة[1]، وكأنَّ النار تمَّ تفصيلها على قَدْر جسومهم، كما يفصَّل الثوب إحكامًا للعذاب، ومبالغةً فيه، فليس فيها اتّساعٌ يُمكن أنْ يُقلِّل من شِدَّتها، وأنها ليست فضفاضةً عليهم[2].

وأمّا **الاحتمال الثاني**: فأنْ يكون من باب المجاز المرسل، فلفظ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 16/ 9761.

﴿قُطِّعَتْ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسببيّة، بإطلاق المسبَّب وهو التقطيع وإرادة السَّبب وهو التقدير؛ إذ لا يُقطَّع الثوب إلا بعد تقديرٍ وتخمينٍ عَلَى مقادير جثثهم وأبدانهم[1].

براعةُ الخبر ﴿يُصَبُّ﴾ بعد الخبر ﴿قُطِّعَتْ﴾:

لمّا اشتملت ثيابُ النّار الأبدان استكمل النَّظم الرؤوس بصبِّ الحميم

يدلُّ التعبيرُ بتعدُّد الخبر وتلاحقه في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ على أنَّ رؤوسهم ليستْ في مأمنٍ من وقوع العذاب بها أيضًا، وذلك أنَّه لمّا قال: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ وكانت الثياب ممّا يشملُ الأبدان ويحيطُ بها دون الرؤوس، نصَّ بعد ذلك عليها دفعًا لتوهُّم عدم وقوعها تحت طائلة العذاب، ولبيان أنَّ لها عذابًا يُناسبها، وهو أنَّ يُصبَّ الماءُ المغليُّ عليها، لينسابَ من فوقها آخذًا طريقَه إلى الوجه والعنق وما يطالُه من جسده، وربَّما ينفذُ إلى داخل جوفِه عبر منافذِ الرأس ومسامِّ الجلد أو بطريقةٍ لا نعلمها، اللّه محيطٌ بتفاصيلها، وهكذا يكونُ العذابُ شاملًا للبدن كلِّه، وما ذلك إلا لرفضِهم السّجودَ لربِّهم، فكانت النارُ تُجبرهم على هيئةِ السُّجود، إذ بصبِّ الماء على الرؤوس سوف يَنحنون على هيئة السّاجدين المطأطئي الرؤوس من شدَّة العذاب.

نكتةٌ مجيء ﴿يُصَبُّ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

تهويل مشهد الصَّبِّ بحذف ذكر فاعله وتسليطُ الاهتمام على الفعلِ

أوثر التعبير بقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ﴾ مبنيًّا للمفعولِ للتهويل، ولأجل الاختصار، لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل للعلْم به، فما من شكٍّ في أنَّ هذا الصبَّ يقومُ به ملائكةُ العذاب الَّذين يُسند إليهم فعلُ كلِّ ما يُحيق بكِبْر المعذَّبين وغرورِهم من ألوان العذاب.

فصاحةُ مفردة ﴿يُصَبُّ﴾:

التعبير بالصَّبِّ دالٌّ على استغراق المصبوب كاملَ الموضع المرادِ تعذيبُه؛ لأنَّ الصَّب معناه: إراقةُ السّائل وسكبُه من أعلى[2] لينسابَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 37.
(2) الراغب، المفردات: (صبب).

لم يعرق جبينهم لله في الدنيا، فصُبَّ عليهم الحميم في النار

إلى أسفل بقوَّة، وفيه من كمال التمكُّن ما يحقِّقُ كمالَ التصوير في بلوغ المراد، وفي اختيار هذه المفردة دلالةٌ على سقوطِ الماء المغليّ من أعلى بشدَّةٍ وقوَّةٍ، وكأنَّهم يجلسونَ تحت شلالٍ متدفّقٍ لا يستطيعونَ رفعَ رؤوسِهم من جريانه وشدَّتِه العالية.

سرُّ اختلاف التَّعبير بالصيغ الماضية والمضارعة:

تقطيع الثياب سابقٌ لمجيء أهلها أمّا الصّهر والصَّبُّ فلا يكون إلّا عند حضورهم

اختلفت صيغ الأفعال عند التعبير عن العذاب وألوانه بما يتناسبُ معَ الغياب والحضور للمعذَّبين، فجاء بالماضي ﴿قُطِّعَتْ﴾؛ لبيانِ حتميَّة وقوعِ هذا الأمر، وأنها قد أُعدَّت سلفًا، وتهيَّأت لهم حال غيابهم، وجاء بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُصَبُّ﴾ وقوله: ﴿يُصْهَرُ﴾؛ لتصوير مشاهد التَّعذيب الَّتي ستكون في نار جهنم، وكأنَّها تحدث الآن أمامَ العيون وتحسُّها وتشاهدها، وما دلَّت عليه صيغة الماضي اكتستْ به بقيَّة الأفعال، ومثلها المضارع، فجميع هذه الأفعال حتميَّة الوقوع، وهي تصوِّر المشهد، لكنّ إيثار الماضي مع التَّقطيع باعتبار أنَّ وجود الثياب سابقٌ على وجود لابِسِها وهم عنها غائبون، أمّا الصَّب والصَّهر فلا يكون إلّا عند وجود المصبوب عليه المصهور وحضوره، ولذا عبَّر عن العذاب المعدِّ بصيغة الماضي، والعذاب حالة الحضور بصيغة المضارع.

نكتةُ تقديم ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ على ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾:

لم تقبل عقولهم الإيمان فغمرتهم النّيران

قُدِّم قوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾؛ لتعيين الجهة بالنصِّ عليها اهتمامًا بها، لكونها غير مشمولة في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ إذ الثياب للبدن لا للرأس، كما يفيدُ اختصاصَ هذا النوع من العذابِ بهؤلاء الكافرينَ بربِّهم الرّافضين السّجودَ له في حياتهم الدنيا غُرورًا واستكبارًا.

براعة استعمال حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في الآية:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ لابتداء الغاية في أوَّل

أمكنة الفوقية، "وكذلك أنَّ الحميم إذا صُبَّ فوقَهم عن بُعد، فإنّه يدركُه الهويُّ فيُنقصُ من حرارته، فإذا صبَّ فوق رؤوسهم بالقربِ نزلَ كما هو، وهذا مشاهدٌ عندنا في الشيء إذا طبخناه أوْ صبَّ في الإناء؛ فإنَّه يبردُ بالمغرفةِ ترفعُ بها إلى فوقٍ وتصبُّه، فيبردُ بالهواء، ومهما علَوْنا بالمغرفة إلى فوق، كان أشدَّ في تبريده، فأفادتْ زيادةُ ﴿مِن﴾ أنَّه يصبُّ فوقَ رؤوسِهم مِن أقرب أمكنة الفوقيَّة إليهم، حتى لا ينتقص من حرارته شيءٌ"[1]، وبذلك يكون التعبير بـ ﴿مِن﴾ مُؤذِنًا بشدَّة الوقوع[2].

الصَّب يكون من أقرب أمكنة الفوقية لا من أبعدها

دلالةُ استعمال الظرفِ ﴿فَوْقِ﴾:

استعمالُ الظّرفِ ﴿فَوْقِ﴾ في قوله: ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ دالٌّ على تعيين جهةِ صبِّ الحميم، وأنَّه من أعلى، وبذلك يكون أشملَ للرّأس ولسائر البدن، ولا تغني عنه كلمة (الصبِّ) الَّتي تدلُّ على مجرَّد الارتفاعِ للماء المصبوبِ النّازل على الأبدان، من دونِ تحديدٍ لكونه نازلًا على رؤوسهم، لكنْ بتشخيصِ محلِّ الصب وهو فوقَ أعلى البدن ومكان الرأس يتحقَّقُ المراد من شمولِ العذاب لأبدانِهم بشكلٍ مُستغرق.

تعيين محل الصبّ مفيد لتحقيق شمول العذاب

توجيه تخصيص الرؤوس بالذكر:

خصَّ الرؤوس بالذكر بحيث لم يقلْ: (من فوقهم) فيشير به إلى الجهة؛ لأنَّ ذكرَ الرؤوس مقصودٌ لذاته، لكونها غيرَ مشمولة بقوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، وأيضًا لتخويفهم بتعذيبِ الرأس، كونُها أكثرَ مواضعِ الجسم شعورًا وإحساسًا بالتعذيب والآلام، وللاستخفافِ بغرورهم وكِبرهم الَّذي منعَهم من السُّجود في الدنيا، فعُذِّبوا بما ينال موضعَ الأنفة من أبدانهم وهي الرّؤوس، فكان الجزاءُ من جنس العمل.

عذاب الرأس أشد تعذيبًا وأكثر إيلامًا وأعمقُ تهكُّمًا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 185.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.

نكتة التَّعريف بالإضافةِ:

صـبُّ الحميم عـلى رؤوس المكذِّبين ومنها عـلى سـائـر الأجساد

أُضيف لفظُ الرؤوس إلى ضمير الجمع حيث قال: ﴿رُءُوسِهِمُ﴾ دون التعريف بـ(أل)، حيث لم يقل: (الرؤوس) للتخصيص، فصَبُّ الحميم بهذه الكيفيَّة إنّما يكون على رؤوسهم هم لا على جميع الرؤوس، وأنه كذلك على رؤوسهم لا على سائر أجسادِهم الظاهرة، لينسابَ إلى بواطنِهم ويَصهرَ ما فيها من أحشاء، وعلى ظواهرِهم ليَصهرَ ما عليها من جلود؛ إضافةً إلى ما سبق ذكرُه من تعذيبِ ظاهرِ أجسادهم بالثياب من النار، الَّتي قُطِّعت على مقدار أجسادِهم بإحكام وازدراء.

نوع التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾:

عـذابُ الحميم معهودٌ والغفلة عـنـه تـدلُّ على الصُّدود

(أل) في قوله ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ للعهد، حيثُ المراد به السّائلُ الشّديدُ الحارُّ منه دون البارد، بقرينة قوله: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ وهذا إنَّما يكون بالحارِّ من الحميم دون البارد، فإنَّ البارد لا يَصهر؛ وذلك أنَّ كلمة ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ كما قال ابن الأعرابي: هي من الأضداد، فتطلقُ على الحارِّ والبارد[1].

كما يؤيد أنّه الحارُّ دون البارد ما أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: "إنَّ الحَميمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الحَميمُ حَتَّى يَخْلُصَ إلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتُ ما في جَوْفِهِ، حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وهو الصَّهْرُ ثُمَّ يُعادُ كَما كانَ"[2].

بلاغةُ جملةِ الحال:

بـعـد تـعـذيـبِ ظـاهرِ الأجساد ينـفـذُ الحميم إلى بواطنِها

لجملة الحال ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ دلالةٌ ترابطيَّة تتميميَّة احترازيَّةٌ؛ وذلك أنّه لمّا ذكر ما يعذَّب به ظاهرُ الجسد المدلولُ عليه بتقدير الثياب النارية وتقطيعها، وبصبِّ الحميم من

(1) الواحدي، البسيط: 15/ 332.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب: أبواب صفة جهنم، الحديث رقم: (2582).

فوق رؤوسهم، ذكر بعد ذلك ما يصلُ إلى باطنهم وأحشائِهم، "وهو الحميم الَّذي يذيبُ ما في البطن من الحشا، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر، وهو الجلد فيؤثّر في الظّاهر تأثيرَه في الباطن"[1]، وهو ما صُرِّح به في قوله سبحانه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: 15]، وقولِه تباركتْ أسماؤُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56]، فقد حققتْ جملةُ الحالِ احتراسًا عن نزول الحميم إلى الرؤوس مِن دون أنْ يخترقَها ويَصهَرَ الأحشاءَ بحرارته العالية.

فصاحةُ اختيار مفردة الصَّهر دون الإذابة:

كلُّ صَهرٍ إذابةٌ ولـيـسـت كـلُّ إذابة صَهرًا

استعمالُ مفردة الصّهر أفصح من الإذابة في قوله تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾؛ لأنها أدلُّ على شدَّة حرارة النّار، الَّتي لا تُذيب فقط الشّحوم والدّسَم كما هو معنى الإذابة[2]، ولكنَّها لشدَّتها تصهرُ الأمعاءَ والجلود، فتجعلُها تذوب كما تذوبُ الشُّحوم، وأيضًا فإنَّ الصَّهر إنما يكون بالمخالطة الشَّديدة، فذلك أصلُ معناه[3] حتى يذوبَ ما ليس من طبيعته؛ كالأمعاء والأحشاء والجلود، ولو قيل: (يذابُ به ما في بطونهم) فإنَّه قد ينصرفُ إلى الشَّحم وليس إلى أصلِ الأمعاء والجلود.

مناسبة بناء فعل ﴿يُصۡهَرُ﴾ للمفعولِ:

عـــدم تـعـيـين الـفـاعـل أشـدُّ ترهيبًا

بُني فعل الصَّهر ﴿يُصۡهَرُ﴾ للمفعولِ؛ ليتَّسق مع بناءِ الفعلين قبلَه ﴿قُطِّعَتۡ﴾ و﴿يُصَبُّ﴾، وذلك للعلْم بالفاعل من الملائكة الموكَّلين بالتعذيب، وعدمِ تجدُّد حاجةٍ تدعو إلى تعيينه، إضافةً إلى التهويل بها والتفظيع الحاصل من إبهام الفاعل.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496.
(2) الخليل، العين: (ذوب).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 30.

معنى الباءِ ودلالتها:

التصاقُ الحميم بالأجساد تصويرٌ عميقٌ لشدَّة العذاب

(الباء) في قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ للإلصاق، وهي مع الفعل قبلَها دالّةٌ على التصاق ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ وهو الماءُ المغليُّ بباطنهم، حتى إنَّه لينفذُ بعد ذلك إلى ظاهرِهم، ودلالةُ الالتصاق تُعطي تلاحمًا بين الحميم وأجسادهم وما تنفذُ إليه من أحشائهم، فيكون فيه تصويرٌ أعمقُ لعملية الصَّهر والاحتراق.

نكتةُ مجيء نائب الفاعل اسمًا موصولًا:

التعبير بالموصول يفيد العموم والإبهام

أتى النَّظم بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون الاسم الظاهر كـ(الأحشاء)؛ لكون التعبير بها أجمع وأخصر، حيث دلَّت على شمول الصَّهر لكلِّ ما في بطونهم دونما تعيينٍ لبعض دون بعض، فالإبهام والعموم في ﴿مَا﴾ يجعل الصَّهرَ متناولًا لكل الأحشاء من دون تمييز واقتصار.

دلالةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة:

تعيينُ محلِّ العذاب أشدُّ إيلامًا للمستكبرين

دلَّ استعمال الحرف ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ على استغراق الصَّهر والعذاب لكلِّ ما هو مظروفٌ في البطون، مشمولٌ داخلَ تجويفها، وهو متَّسقٌ مع دلالة ﴿مَا﴾ العامة المبهمة، وفي هذا الحرف تأشيرٌ على شدَّة حرارة الحميم المصبوب على الرأس، إذ نفذ منه ونزل إلى ما في البطون والجلود.

نكتةُ جمع البطون مع إضافتها إلى ضمير الجمع:

العموم والاستغراق أشدُّ تفضيعًا وترهيبًا

جُمِع لفظُ (البطون)، وأُضيف إلى ضمير الجمع لإفادةِ العموم، فالجمعُ المُعرّف بالإضافة كالجمع المعرّف بـ (أل) في إفادة العموم.

نوع الواو ومعناها السّياقيّ:

الواو للعطف والعطف إما من عطف الأفراد أوْ عطف الجمل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ عاطفةٌ، وهو إمّا من عطف المفردات، بأن تكون كلمة ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ معطوفة على ﴿مَا﴾ فتدخلُ في حُكم الصَّهر، ومرادُه أنَّ الحميمَ إنَّما يمسُّ الظّاهر ويُلابِسه ومع ذلك فتأثيرُه في الباطن أقوى، وهو أحدُ احتمالين، والاحتمالُ

الآخر أنْ ينسابَ الحميمُ داخلَ بطونهم من منافذَ يصنعُها بحرارتِه الصّاهرة الشديدة في الرأس والوجه، فيَصهرها ثمَّ ينفذ إلى الجلود فيصهرُها كذلك.

وإمّا أن يكون العطفُ من عطف الجمل، أي بالعطف على جملة ﴿يُصْهَرُ﴾ وحينئذ يقدَّر لها فعلٌ أي: (وتُحرَق الجلود)؛ "لأنَّ الجلود لا تذابُ، إنَّما تجتمعُ على النار وتنكمشُ، وهذا كقولهم: (علفتها تبنًا وماءً باردًا) - أي: وسقيتها ماءً باردًا - وقول الشاعر: (وزجَّجن الحواجب والعيونا)[1]، أي: وكحَّلن العيونا، والأوْلى الوجهُ الأوَّل؛ لأنّ صهرَ ما في البطون والجلود لا يتنافى مع كونها لا تذوبُ بمعنى الفناء، بل تنصهرُ وتنضج وتنكمش، ثمّ يبدَّلون جلودًا غيرها ليزدادوا عذابًا.

نكتةُ تعريف الجلود بـ (أل) لا بالإضافة:

جاءَ تعريف لفظ ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ بـ(أل) دون الإضافة كما في ﴿بُطُونِهِمْ﴾، وذلك أنَّ حرق الجلود شأنٌ عامٌّ في جميع المعذبين، ولا يخصُّهم وحدَهم، بناءً على أنّه من عطف الجمل، ولذا لم يسلُك به مَسلكَ ما قبله من الإضافة المخصِّصة في لفظي ﴿رُءُوسِهِمُ﴾ و﴿بُطُونِهِمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾، كما فيه رعاية للجانب الصَّوتي في الفاصلة، والذي نميلُ إليه أنَّ (أل) عوضٌ عن المضاف إليه، فكأنَّ المعنى: (ما في بطونهم وجلودهم)، وتكون النكتةُ في العدول الدلالةَ على الاستغراق للجلد كلِّه، حتى لا يبقى منه موضعُ لمعة إلا وتعرَّضت للصّهر والعذاب.

التعريف بـ (أل) مراعاةٌ للفاصلة ولبيان أنّ حرق الجلود ليس خاصًّا بهم

نوع الواو ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: عاطفةٌ لهذه

تلاحقُ صور العذاب لشديدِ الاستكبار والاستخفاف

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496، والسمين، الدر المصون: 8/ 250.

الجملة على جملة ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ قصدًا للتشريكِ والجمعِ بينَ العذابين، وما تلاحقُ هذه الصّور من العذابات المتوالية بالجملِ النعتيَّة والحاليَّة والمعطوفة إلا لشدَّة استكبارِهم وعدمِ خضوعهم وانقيادِهم لربوبيَّة خالقهم وموجدِهم العظيم.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُم﴾:

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿وَلَهُم﴾ وهو الخبرُ على المبتدأ وهو لفظ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾؛ لإفادة الاختصاص، وفيه تخويفٌ لهم، وتنكيلٌ بهم، وتهكُّم يقابلُ استخفافَهم بعظمة الله واستكبارَهم على خالقهم، ورفضَهم لربوبيَّتِه وسلطانِه.

نوع اللّام ومعناها:

الكفّارُ مُستحقّون أنْ يُضرَبوا بمقامعِ الحديد

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَهُم﴾ للاستحقاقِ، وقُصد بمجيئها إفادةُ استحقاقهم الضَّرْبَ بمقامعِ الحديد وأسواطِه؛ كلَّما حاولوا الخروج من النّار هربًا من شدَّة العذاب، وقيل: اللّام للأجْل والغرض، والكلامُ على حذف مضاف، أي: لتعذيبِهم، وقيل: هي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [غافر: 52]، أي: وعليهم[1]، والأرجح الأول لأنَّ دلالة الاستحقاق تظهرُ أنَّ ما وقع عليهم كان نتيجةَ أعمالهم وغرورِهم في الدنيا واستكبارِهم عن الخضوع لربِّهم.

تعيين مرجع الضمير ﴿وَلَهُم﴾:

الضميرُ في قوله: ﴿وَلَهُم﴾ يعودُ فيما هو ظاهرٌ على ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وللَّذين كفروا ﴿مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، وقيل: هو عائدٌ على زبانية النّار، أي: وللزبانيةِ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ بأيديهم يقمَعون بها الكفار، ويضربونهم كلَّما حاولوا الخروجَ من النّار، وهو بعيدٌ لمنافرتِه السّياق[2]، وعدمِ تقدُّم المرجِع الدالِّ على ذلك.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 249.

فصاحةُ التعبير بلفظ ﴿مَّقَـٰمِعُ﴾:

لفظُ المقامع يوحي بالعذاب الشَّديد

المقامع: جمع مِقمَعة - بكسر الميم - بصيغة اسمِ آلة للقَمْع، وهو السَّوطُ، وقيل: المِطرَقة[1]، أي: يُضربونَ بسياطٍ مِن حديد، والقَمْعُ: الكفُّ عن شيءٍ بعُنْفٍ[2]، وفي التعبير بـ(المقامع) ترهيبٌ لهم وتحذيرٌ بإخبارهم عن مصيرهم الَّذي يَنتظرُهم، لعلَّهم أنْ يَفيقوا ويَنتبهوا، وهي توحي بما سيكونُ لهم من عذابٍ شديدٍ سوى عذابِ النّار، فالعذابُ لا يقتصرُ على الحَرْق، بل يتعدّاه إلى أصنافٍ فظيعة، وأشكالٍ رهيبة.

دلالة الاحتراس بالوصفِ:

تميُّزُ العذاب بتميُّز آلاته

وُصفت المقامع بأنَّها مصنوعةٌ ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ احتراسًا أنْ يُظنَّ أنَّها مصنوعةٌ من الجلودِ كالسّياط المعهودة، وذلك زيادةٌ في التَّرهيب، وبيانٌ لما يقع عليهم من شديد العذاب.

دلالةُ ﴿كُلَّمَآ﴾ في بناء الجملة:

لا مهربَ من عذابِ الله ولا مخرجَ إلّا طريق جهنَّم

(كلَّ) منصوبٌ على الظّرفيَّة الزمانيَّة؛ لأنَّها أُضيفت إلى (ما) الظرفية، والعامل فيها قولُه: ﴿أُعِيدُواْ﴾، وهو جوابُها، و(ما) نكرةٌ موصوفةٌ، ومعناها: الوقت، والعائد محذوفٌ، تقديره: كلَّ وقت[3]، أي: كلَّ وقتٍ أرادوا فيه الخروجَ، وحاولوه، ووجِهوا بسياطٍ مِن حديدٍ تضربُهم وتَزجرُهُم وتَمنعُهُم منه، وهذه الأداةُ تُستعمل استعمالَ أدوات الشَّرط والجزاء، فتفيدُ تعلُّق مضمونِ الجواب بمضمون الشَّرط، ممّا يوحي بالارتباطِ والتلازم بينَ حالتي إرادة الفرار والإعادةِ بكلِّ عُنفٍ وقوّةٍ وقَسوة، فتظهرُ صورةُ (الطِّباق) الخفي بين مُريدٍ للهروب ومُحاولٍ له، وإعادةٍ إلى المكان المهروبِ منه بعنفٍ.

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(3) السمين، الدر المصون: 1/ 180، 8/ 250.

نكتةُ منع إرادة الخروج لا الخروج:

النّـــار سجـنٌ مقفلٌ لا نجاةَ منه ولا مهربَ

عُلِّق أمرُ إعادة الكفّار إلى جهنم على مجرَّد إرادة الخروج: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ دون الفعلِ (خرجوا)، يدلُّ على شدَّة مراقبتِهم والتضييقِ عليهم، حتى إنَّهم ليُضرَبون بها لمجرَّد محاولةِ التَّفكيرِ بالخروج، لا على الخروج نفسه؛ لأنَّهم لنْ يُدركوه أصلًا، وهذا من عجيب تهويلِ ذلك المشهَد الأليم، وفيه ردٌّ على تشبيه زبانية النّار بسجّاني الدُّنيا، فإنَّ سجونَ البشر مهما بلغَتْ من تشديدِ الحراسة، فهي كالهباء لما يكون في النّار؛ إذ لا علمَ للسجّان البشريِّ بالإرادة، وإنما بالفعل نفسه إنِ انكشفَ له وعلِمَ به.

سر التَّعبير بأداة ﴿أَن﴾ المصدرية مع الفعل المضارع دون المصدر:

محاولة الخروج من النار متكرِّرة لا للأمل فيها بل لشدَّة العذاب

في العدولِ عن المصدر الصَّريح وهو الخروج، إلى المصدر المؤوَّل وهو ﴿أَن﴾ المصدريّة والمضارع بعدها: ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾، إشعارٌ بأنَّهم لشدَّة ما يُلاقونَه من عذاب، سوفَ تتكرّر منهم الإرادة لمحاولات الخروج الَّتي تشيرُ إليها ﴿كُلَّمَآ﴾ أيضًا، وأنَّ الضّربَ بالمقامع مع كلِّ إرادة للمحاولة لا يمنعُهم من تكرار المحاولة مرّات ومرّات، أملًا في النّجاح والخروج، لكن هيهات هيهات، إنَّه أمل بائس، وبذلك يتناغمُ التعبير بـ﴿كُلَّمَآ﴾ مع المصدر المؤول ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾ تناغمًا دقيقًا في الدَّلالة على تكرُّر الإرادة ومحاولةِ الخروج والفرار.

مَعْنَيا (من) ودلالتهما:

تـحـديـد المـبـدأ والسبب يصور حقيقة المشهد الأليم

(من) المتكررة في قوله تعالى: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ لها معنيان؛ فالأولى ابتدائيّةٌ، والضّميرُ يعود إلى (النار) والمعنى أنَّهم كلما أرادوا أنْ يَبتدئوا خروجًا من النّار ويُحاولوه تُعيدُهم مقامع الحديد إلى مبدأ محاولةِ الخروج.

والثانية في قوله: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ سببيَّة، وهي كاشفةٌ عن سببِ محاولاتهم الخروجَ من النّار، أي: أنّهم يريدون الخروج من النار

بسببِ ما يُلاقونه فيها من عظيم الغمِّ والهمّ وأصنافِ العذابِ الأليم، وكلٌّ من حالتي الابتداءِ والسّبب وتأشيرهما يُعطيان للمشهد تشخيصًا دقيقًا، بحيث ندرك كميّةَ الألم ونوعيَّة المهانة، الَّتي تجعلهم في حالاتِ فرارٍ دائمة، ويمكنُ حملُ ﴿مِنۡ﴾ الثانية على أنها ابتدائية أيضًا، فيكون مبتدأ الخروجُ من غمِّ النار، وهو المقصود بالأصالة كما هي وظيفةُ البدل.

موقعُ ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ الإعرابيّ وأثرُهُ في المعنى:

خـروجُ الكفّار بسببِ الغمِّ المُحيطِ بهم

قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ إمّا أن يكونَ بدلًا من الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ بإعادةِ العامل، بناءً على أنّها ابتدائيّة أيضًا وليست للسببيَّة كما تقدَّم آنفًا، أي: بدلَ اشتمال كقوله: ﴿لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾ [الزخرف: 33]، ولكن لا بدَّ في بدل الاشتمال من رابطٍ، ولا رابط هنالك، فقالوا: هو مقدّر تقديره: (من غمها)، وأنّه حُذف لكونه مفهومًا من المعنى[1]، وإمّا أن يكون مفعولًا له، ولمّا نقصَ شرطٌ من شروط النصب جُرَّ بحرف السَّبب بناءً على أنها سببيَّة، وذلك الشّرط: هو عدمُ اتحاد الفاعل؛ فإنَّ فاعلَ الخروج غيرُ فاعل الغمِّ، فإنَّ الغمَّ من النار والخروجَ من الكفّار[2].

براعة استعمال مفردة ﴿غَمٍّ﴾ دون مرادفاتها:

غـمُّ الكافرين مستحكمٌ بهم معنويًّا وحسيًّا

آثر النَّظم استعمالَ مفردة ﴿غَمٍّ﴾ وهي مصدرُ غَمَمْتُ الشَّيء، أي: غطَّيتُه، والمعنى: كلّما أرادوا أن يخرجوا من تغطيةِ العذاب لهم، أوْ ممّا يُغطّيهم من العذاب ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، أي: في قعرِها بأنْ رُدّوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أنْ يخرجوا منها، إذ لا خروجَ لهم كما هو المشهور من حالهم[3]، ومعنى التَّغطية يدلُّ على الإحاطةِ المُستمكنة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 251.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.

منهم، فلا يُراد بـ(الغمِّ) هنا المعنى الحسيُّ وحده، أو المعنويُّ وحده، بل كلاهما، ومن هنا جاءت براعةُ استعمال هذه المفردة.

غرضُ تنكير ﴿غَمٍّ﴾:

نُكِّرت لفظة ﴿غَمٍّ﴾ للتعظيم والتفخيم، والمراد من غمٍّ عظيم من غمومها[1] الكثيرة الَّتي تجتاح أجسادَهم وقلوبَهم وأرواحَهم.

فصاحة استعمال الإعادة دون الإدخال:

الإعـــادة تكـون في داخـل النّـار والإدخـــال من خـارجـهـا إلى جوفها

جاء التَّعبير القرآنيُّ دقيقًا في قوله تعالى: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وذلك أنَّ المعذَّبين لم يخرجوا من النّار أصلًا؛ لأنَّهم يُردّون إلى مكانهم الَّذي يحاولون الخروج منه عند إرادتهم التحرّك نحو الخروج، في حين أنّ الإدخال لا يكون إلّا بعد أنْ يتحقَّقَ الخروج، ولذا أوثر التعبير بـ ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ دون (أدخلوا فيها).

نكتةُ التعبير بالمبني للمفعول ﴿أُعِيدُواْ﴾:

جاء التَّعبير عن فعل الإعادة بصيغةِ المبنيِّ للمفعول ﴿أُعِيدُواْ﴾، فلم يذكر الفاعل اختصارًا للعلْم به، ولأنَّ القصد هو الإخبار بإعادتهم المحقَّقة إلى النار، الَّتي يحاولون الخروجَ منها، كما يتجانسُ بناؤه للمفعول مع الأفعال السّابقة عليه المبنية للمفعول الدالَّة على نوعٍ من الإبهام، الَّذي يُثير المخاوفَ والرّهبةَ من المجهول.

بلاغة التَّعدية بحرف الظَّرفيّة دون انتهاء الغاية:

الـظـرفـيـةُ دالَّـةٌ عـلـى الـتـمـكُّـن والاسـتـقـرار في النار

تعدَّى فعلُ الإعادة بحرف الظَّرفيَّة دون انتهاء الغاية (إلى)، وهو يتعدَّى بالحرفين، فقال: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ولم يقل: (أعيدوا إليها)؛ وذلك لأنَّ الظرفيَّة المدلول عليها بـ (في) مقصودةٌ، فهم لم يخرجوا من النّار أصلًا حتى يَعودوا إليها، بل إنَّ محاولاتهم الخروجَ وإفشالَها كلُّ ذلك يتمُّ في داخل النار، ويدلُّ كذلك على التمكُّن والاستقرار[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.

بلاغةُ حذف فعل القول:

عـذابُ الكافرين إيـــلام بـــدنيٌّ وإيـــذاءٌ بالقول وعذابٌ نفسيٌّ

قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ هي جملةٌ معطوفة على جملة ﴿أُعِيدُواْ﴾ بتقدير فعلِ قولٍ محذوفٍ؛ لامتناعِ عطفِ الإنشاء على الخبر عند البيانيّين[1]، أي: وقيل لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فيكون من عطف الجمل، ويشير إلى هذا المحذوف ورودُه مُصرَّحًا به في آية شبيهةٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة: 20]، وفي هذا القول تقريعٌ لهم وتهكُّم بهم، وتحسير على ما آل إليه مصيرُهم، فيكون قد جمع لهم بينَ الإيلام بالفعل والإيذاء بالقول، وإنِ اعتمدنا القول بجواز عطف الإنشاء على الخبر وهو الراجح؛ فلا حاجةَ إلى تقدير فعل القول أصلًا، ويكون القصد الأمرَ بذوق العذاب وهم فيه، فيخرج إلى معنًى مجازيٍّ هو التهكم والاستخفاف أيضًا.

بلاغةُ الاستعارة في فعل الأمر ﴿وَذُوقُواْ﴾:

الغرضُ من فعل الأمر ﴿وَذُوقُواْ﴾ هو ذوق عذاب الحريق على سبيل السُّخرية بالكافرين، والإهانةِ لهم؛ فإنَّهم قد علموا أنَّهم يذوقونه[2]، وفي التعبير بلفظ ﴿وَذُوقُواْ﴾ اسْتعارَة تهكُّمية[3]، فقد عبَّر به عن الإيلام الشَّديد تهكُّمًا بهم، إذ شبّه تألّموا بما يضادُّه وهو الذوق للطَّعام والشَّراب كما هو الأصل، بعد أنْ جعلَ بينهما شبَهًا ومُناسبةً، ثمَّ استعارَ الذوق للألم على سبيل الاستعارة التصريحيّة تهكُّمًا واستخفافًا.

العـذابُ يُـذاق كـمـا تُـــذاق الأطـعـمـة الكريهة المشمأزّ منها

بلاغةُ الاستعارة المكنية في لفظ ﴿عَذَابَ﴾:

في لفظ (العذاب) وهو هنا المُذاق، استعارةٌ مكنية، فقد شبَّهه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 57، 28/ 194.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 38.

بطعامٍ بغيضٍ كريهٍ إلى طاعمِه، لما فيه من مرارةٍ في طعمه وصعوبةٍ في بلعه، ثم حذفَ المشبَّه به وهو الطعامُ الموصوف بهذا الوصف، ودلَّ عليه بشيء من لوازمه وهو الذوقُ المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ﴾، وبذلك تجتمعُ الاستعارة التصريحيَّةُ في ﴿وَذُوقُواْ﴾ والمكنية في ﴿عَذَابَ﴾، وتكون قرينةُ المكنية هي التصريحيّةَ.

نوع الإضافة وصيغة المضاف إليه:

التركيب والصيغة يتآزران في تهويل العذاب

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ من إضافةِ الموصوف إلى الصفة، أي: العذابَ المُحرقَ بالغَ الإحراق وشديدَه، لما في الصيغة (فعيل) من دلالةٍ على المبالغة.

بلاغةُ فنِّ التتميم:

العذابُ شاملٌ لإبادِ الكامل والجحودِ الثّابت

عدَّدتِ الآيةُ الكريمة ألوانَ العذاب الَّتي تنتظرُ الخصم الكافر، الّذي أبى السّجود والانقيادَ لله، وشملَتْ كلَّ جزءٍ منهم في الظّاهر والباطن، فمِن تقطيعِ ثياب النار لهم، إلى صبِّ الماء المغليِّ الّذي يصهَرُ أحشاءهم داخلَ بطونهم، وينفذُ إلى ظاهرِهم ليصهرَ جلودَهم، أو العكسَ بأنْ يصهرَ جلودهم ثم ينفذَ إلى بواطنهم ليصهرَ ما فيها من أحشاء وأجزاء، فهو تتميمٌ لوصف العذاب الشَّديد في النّار.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التقطيع والتفصيل:

التقطيع أدلُّ على الإحكام والإهانة والتفصيل يكونُ لما فيه فرجة

التقطيع: مبالغة القطع، وهو فصلُ بعض أجزاءِ شيء عن بقيّته، والمراد: قطعُ شقَّةِ الثوب، وذلك أنَّ الَّذي يريدُ اتخاذَ قميص أو نحوِه يقطعُ من شقّةِ الثوب ما يكفي، كما يريده[1]، ولذا فالتعبير بالتقطيع هنا أبلغُ من التعبير بالتفصيل؛ لدلالته على أنّ أثوابَهم من النّار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.

قد قُطِّعت على مقدارِهم دونَما زيادةٍ أوْ نقصان، قال البيضاوي: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم[1].

وأما التفصيل فهو من الفصل، وهو: إبانةُ أحد الشّيئين من الآخر، حتى يكونَ بينهما فرجةٌ، ومنه قيل: المَفاصِلُ، جمع مَفْصِل، ويقال: فَصَلْتُ الشاة: قطعتُ مفاصلها، وفَصَلَ القومَ عن مكان كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه[2].

ويطلقُ التفصيل أيضًا على حياكةِ الثوب، وقد يكون الثوبُ المفصَّل فضفاضًا غير محكَم، فلا يدلُّ على المقصود وهو شدّةُ إحكام الثياب النارية عليهم، كما أنَّ في التقطيع من الثوبِ لغرضِ لَبسِه ما يشيرُ إلى الإهانة حتى لبِسوا قِطَعًا مقطّعةً.

الغمُّ والهمُّ:

الغمُّ كربٌ يحصلُ للقلبِ بسببِ ما يحصلُ والهمُّ لما يتوقَّع حصولُه

قال العسكريُّ في الفرق بينهما: الهمُّ هو الفِكر في إزالَة المَكْروه واجتلابِ المحبوب، ولَيْسَ هو من الغمِّ في شَيْء، ألا ترى أنَّك تَقولُ لصاحبك: اهتمَّ بحاجتي ولا يَصحّ أن تَقولَ: اغتمّ بها، والغَمُّ معنًى ينقبضُ القلبُ مَعَه، ويكون لوُقوع ضَرَر قد كانَ أو توقّع ضَرَرٍ يكون أوْ يتوهّمُه[3].

وقال الزبيدي في التفريق بينهما: الغمُّ هو الكربُ يَحصُلُ لِلْقَلْبِ بسَبَبِ ما حَصَلَ، والهَمُّ هو الكَرْبُ يَحْصُلُ بِسَبَبِ ما يُتَوَقَّعُ حُصولُه مِنْ أذًى[4].

وبذا يظهرُ أنَّ التعبير بالغمِّ في الآية أوْلى؛ لأنَّه تعبيرٌ عمّا يحصل لهم من الكَرْب حالَ وجودهم في النّار بالفعل، وهو متعلِّقٌ بأصل المعنى اللُّغوي وهو الغطاء، فإنَّ الغمَّ يُغطّيهم من كلِّ جانبٍ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.
(2) الراغب، المفردات: (فصل).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 266، 267.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (غمم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»